

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول الله تعالى: (أَقْمِنُ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)¹.

ويقول سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين بن علي (صلوات الله وسلامه عليهما) "من حاول أمرا بمعصية الله كان أفوت لما يرجو، وأسرع لمحىء ما يحذر" وهنا عدة إضاءات:

الإضاءة الأولى: بيان الفرد والعائلة والمجتمع والدولة

ان البنيان الذي تحدثت عنه الآية الشريفة، تارة يكون بنيان (الشخصية الفردية) المصدقية الحقيقية، وتارة يكون بنيان (عائلة) من العوائل، وثالثة يكون البنيانُ بنيانَ (تجمع) من التجمعات، فـ(..بنيانه..) يراد به إطلاقاً أو ملاكاً: الأعم من بنيانه الشخصي والعائلي وغيرهما، هل أسسه على تقوى من الله ورضوان؟ أمأسسه على شفا جرف هار، فأنهار به في نار جهنم. وهناك صور وأنواع أخرى من البنيان، منها: (بنيان الدولة)، فان الدولة تارة يبينها القائمون عليها على تقوى من الله ورضوانه، وتارة تبني على العكس من ذلك.

ومنها (المجتمع) بأكملها فانه قد يبني على التقوى والرضوان وقد يبني على السخط والعدوان. وذلك يعني: ان البنيان مفهوم عام وشامل، لا يتحدد^٢ ببناء محدد ومفهوم ضيق كما قد يُتوهم (أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، ام من أسس بنيانه على شفا^٣جرف هار فأنهار به في نار جهنم). فعلى الإنسان ان يتدبر ويتفكر حول ذاته وما يحيط بها، كيف هو بناء شخصيته؟ وعلى ماذا بني شخصيته وحياته وعلاقاته الاجتماعية؟ وعلى أي شئ بني أسرته؟ او تجمعه او حزبه او العشيرة او الدولة او المجتمع بأكمله؟.

الإضاءة الثانية: معادلة الباني، البناء، والمبني

إن هذه المفردة (أقمن أسس بنيانه) تستبطن معاني ثلاثة، او قل ألها تدل بالدلالة التضمنية على :

(١) الباني.

(٢) البناء.

(٣) المبني.

ولا بد من تقييم ودراسة هذه الاضلاع الثلاثة:

١- التوبة: الآية ١٠٩.

٢- كمفهوم وموضوع. بما هو هو، واما بلحاظ وروده في الآية الشريفة فانه (لا يتحدد) اما لإطلاقها أو لملاكها ولعموم الحكم المستفاد من سائر الأدلة.

٣- الحافة والشفير.

٤- طرف الوادي او غيره.

الباني ماهي شخصيته او ماهي شاكلته — بحسب أية قرآنية أخرى —؟ ثم ان البناء كيف هو؟ بعد ذلك الناتج من البناء أي المبني (المصنوع) ماهي خصوصياته؟ وماهي أبعاده؟ وماهي مواصفاته؟
إذن هنالك (باني، وبناء، ومبني)، او قل (صانع، وصُنع، ومصنوع) فهذه ثلاث مفاهيم وحقائق كلها تضمنتها كلمة (بنيانه) الواردة في الآية الكريمة.

الإضاءة الثالثة: التجانس بين الباني والبناء والمبني

إن هذه الحلقات الثلاثة (الباني، والبناء، والمبني)، او قل (الصانع، والصُنع، والمصنوع)، او نقول تماشياً مع مفردة أخرى وردت في الآية الشريفة وهي (أسس): (المؤسس، والتأسيس، والمؤسسة)، فان المؤسس له شخصيته، والتأسيس له خصوصيته، والمؤسسة لها مواصفاتها، هذه الحلقات الثلاثة يوجد فيها نوع من التجانس والسخرية بينها، أي بين عملية البناء وبين الباني ثم بين المبني والبناء والباني (أفمن أسس بنيانه...) اذ ان هذه الإضافة — إضافة ببيان للضمير — فيها من الدلالة الشيء الكثير.

نوعية النظام تدل على شخصية المنظم

اذا دخلنا الى مؤسسة ما، فوجدنا الفوضى فيها هي الغالبة: السجلات والأوراق متناثرة هنا وهناك، والكراسي والأشياء موضوعة كيف ما اتفق... إلى غير ذلك، فإننا سنكتشف من خلال هذه الحالة الفوضوية، شخصية القائم على هذه المؤسسة، وانه إنسان فوضوي، وغير متقن لعمله.

كما اننا لو دخلنا الى مؤسسة أخرى فرأينا النظام فيها، نظاماً مركزياً استبدادياً، فنستكشف من ذلك شخصية هذا القائم على هذه المؤسسة وهذا المشروع، وأنه ذو شخصية أنانية، وانه لا يرى للآخرين نصيباً من المعرفة او الحرية او الرأي ولذلك لم يفتح لهم المجال لكي يدلوا بأرائهم، ليأخذ بها ولو في الجملة، وهذا واضح لان نوع النظام يكشف عن شاكله المنظم.

لون الحديث يكشف عن شخصية المتحدث

ولنضرب مثلاً آخرًا: فانك تستطيع أن تكتشف شخصية الخطيب او الأستاذ او المتكلم او المؤلف، من خلال خطابته او درسه او كتاباته. كيف يدخل في صلب البحث وكيف يبتدئ مطلع الحديث؟ وكيف يتوسط ويتوغل في الثنايا والأثناء؟ ثم كيف يختم وينتهي؟ وهل هناك تسلسل منطقي يحكم مختلف ما تناثر من أحاديثه خلال ساعة معينة من كلامه او لا؟
وهل ان هذا (الخطيب) مهتم بالآخرين ومقدّر لهم فيعد الإعداد الجيد ام انه لا يعير أهمية لهؤلاء الذين تجشموا العناء لكي يستمعوا منه بعض العظات؟

ان نوع الحديث يكشف عن توفر الحكمة في (المتحدث) أو عدمها، كما انه يكشف عن عمق تفكيره او سطحيته. وان الانسان الحصيف اذا استمع الى متحدث ولولبرهه قليلة، يعرف من ذلك انه ذو شخصية جادة متزنة، او شخصية مترهلة عابثة. بل قد يعرف ما وراء ذلك ايضا أي يعرف هل انه متواضع؟ او انه مستعلي على الناس؟ هل هو شجاع؟ ام جبان؟ ام متهور؟
وحاصل الكلام في (الصانع، والصُنع، والمصنوع): ان الأثر يدل على المؤثر، لافي وجوده فقط، بل في تفاصيل وجوده ايضا. فان الدلالة دلالة تكوينية شاملة، على الأصل والخصوصيات، لكن هل في عالم الإثبات نكتشف ذلك كله أو بعضه ام لا؟ ذلك أمر آخر، وقد جعل الله له طرقاً منها التدبير والتأمل والتفكير والفحص وغير ذلك.

(محرم) من اكبر الفرص

لإعادة تشكيل (البنيان)

شهر محرم الحرام هو من أفضل الفرص، كشهري رمضان الكريم، لكي نعبد التفكير فيما بنينا عليه حياتنا، وفي بنيان شخصيتنا ولكي نعبد بناء شخصيتنا من جديد، وعلى كل واحد منا ان يفكر في سره: من انا وكيف أنا؟ وهل أنا سائر على الطريق الصحيح في تعاملتي مع الآخرين، في الأسرة او المجتمع، ام لا؟ وما هو ناتج ذلك كله؟

ولكن لماذا شهر محرم هو فرصة استثنائية نادرة؟ إن الإجابة واضحة جداً وذلك لان الرمز الذي يذكرنا شهر محرم به، هو أقدس رمز بعد رسول الله المصطفى محمد، وبعد أبيه أمير المؤمنين، وأمه الزهراء وأخيها الإمام الحسن (عليهم جميعاً أركى الصلاة والسلام) فانه صلوات الله عليه يجمع الفضائل بل قمتها، وسيد الأولياء وقوتها.

ان شهر محرم لهو فرصة استثنائية، نادرة الوجود، لكي يعيد كل إنسان التفكير في شاكلته النفسية، من أنا؟ وكيف أنا؟ وما هو التغيير والتطوير الذي يجب ان يتبلور ويتجسد في هذه الذات؟ وهو شهر استثنائي لكي يعيد كل من الخطيب او المؤلف او الأستاذ او الطبيب والمحامي او المهندس او الآخرون بناء شاكلتهم النفسية وشاكلة عوائلهم وتجمعاتهم.

ان من المعروف ان شهر رمضان شهر تمذيب الأنفس، ولكن شهر محرم ايضا كذلك. ونحن عندما نرفع هذه الراية، وهي من قبل مرفوعة خفاقة، فلاشك في ان ذلك للحصول على الأجر والثواب، كما لا ريب في ان ذلك تعظيم أهل البيت (عليهم أركى الصلاة والسلام)، وبيان مظلوميتهم، لكن ايضا لكي نعبد التفكير، ولكي نعبد بناء هذه البنية التي بنينا أنفسنا عليها، لنكون الأحسن فالأفضل فالأكمل.

دلالات موقف سيد الشهداء (عليه السلام) مع (المساكين)

هناك قضية معروفة عن سيد الشهداء (عليه أركى الصلاة والسلام) وقد وردت بها روايات عديدة:

الرواية الأولى: "أنا إمام (عليه أركى الصلاة والسلام) مرّ على مساكين يأكلون كِسراً على كساء فسلمّ عليهم، فدعوه لكي يتناول معهم، فجلس (عليه أركى الصلاة والسلام) وقال: لولا انه صدقة، لأكلت معكم، ثم دعاهم الى داره وضيّفهم وأطعمهم وكساهم ووصلهم بدراهم"

الرواية الثانية^١: "أنا إمام (عليه أركى الصلاة والسلام) مرّ على مساكين يأكلون، في الصُفّه، فدعوه الى الغداء فقال: (ان الله لا يحب المتكبرين) ثم انه (عليه أركى الصلاة والسلام) جلس معهم وتغدى معهم"

ولاتنافي بين هذه الرواية والرواية الأولى، اذ يبدو ان الحادثة كانت متكررة ففي تلك القضية كان طعامهم طعام صدقة فلم يأكلوا إمام (عليه أركى الصلاة والسلام) معهم، أما في هذه القضية فلم يكن طعامهم طعام صدقة، فأكل معهم (لان المساكين أحياناً يحصلون على هدايا، او هبات، او من محصول وقف عام، او غير ذلك)^٢.

والحاصل: ان الظاهر ان القصة لم تكن في قضية واحدة بل كانت في قضايا متعددة، و(الإمام (عليه أركى الصلاة والسلام) جلس معهم وتغدى معهم ثم دعاهم الى منزله وقال لزوجته: اخرجي ما كنت تدخرين، فأعطاهم مما ادخرته ليوم ما من الأيام).

لتغير تعاملنا مع ذوي الدخل المحدود

وهنا نقول: هاتان القستان على بساطتهما الظاهرية، تستبطنان سر تحول أمة بأكملها، إذ تكشف عن عمق (بنيانه) صلوات الله وسلامه عليه، وعن انه كيف يجبر أن تكون عليه الأمة؟

١- جمع كسرة، كقطعة وقطع. والمقصود قطعاً من الخبز اليابس.

٢- وهي مذكورة أيضاً في (تاريخ بن عساكر) ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) حديث ١٩٦، إضافة الى مصادرنا.

٣- ويحتمل كونه من كذبهم أيضاً، فإن كثيراً من الفقراء والمساكين، يعلمون أعمالاً بسيطة، إلا انها لا تفي بحاجاتهم.

هل يوجد تاجر يقوم بمثل هذا العمل؟ وهل هناك عالم او طبيب او مهندس او محامي او أستاذ جامعي او صحفي لامع، او رئيس او وزير او برلماني، يمر على مساكين فيجلس معهم على قارعة الطريق، ثم بعد ذلك يدعوهم الى منزله؟.

ان هذه منهجية تربوية، علينا أن نتعلمها

من سيد شباب اهل الجنة(عليه ازكى الصلاة والسلام) لنا جميعا، وهي ليست قصة عابرة، بل أريد منها التعليم، لأنها مأسوة وقدوة، وهو سيد الكائنات وأشرف الخلائق في زمانه (عليه أزكى الصلاة والسلام).

اننا في شهر محرم عندما نتحدث، وعلى المستمع عندما يستمع، ان نتجسد ونمثل هذه المثل وهذه القيم في ذواتنا، فلو وجدت في داخل نفسي تعاليا على الناس مثلا، فعلي ان اكسر هذا التعالي، ولو كان في شاكلي النفسية بعض التكبر او الغرور او الحسد او الحقد على المؤمنين في مسائل شخصية، او بعض العجب بالنفس، فعلي أنأحو لإصلاح ما فسد واقوم بتهذيبه.

نعم.. ان شهر محرم شهر متميز في شهور السنة الى جوار شهر رمضان الفضيل وهو يعدّ فرصة مثلى لكي نعيد حساباتنا: عائلي كيف بنيتها وجماعتي وتجمعي، وذاتي أيضاً! ان من الضروري أن تنطلق الأمة كلها في البعد العاطفي وتبعث — وتتحرك — بل يجب عليهم إحياء أمر أهل البيت عليهم الصلاة والسلام هذه كما ان من المطلوب إحياء الشعائر بأرقى ما يمكن من الإحياء وبمختلف تجسدها وتمثيلاتها وهيئاتها والواتها التي صرح مشهور العلماء بجوازها بل استحبابها، لكن وازافة الى ذلك: علينا إعادة النظر في بنيانا الذي بنينا عليه أنفسنا وأن نفكر دوماً: كيف بنيت عائلي؟ وكيف بُنيت وعلى م بُنيت تلك الدائرة او المؤسسة أو ذلك التجمع؟ هل بُنيت كلها على منهج سيد شباب أهل الجنة، ذلك المنهج المتميز الذي لا نجد له نظيراً في العالم كله؟.

علينا ان نعيد النظر في بنيان ذواتنا وان نعيد النظر في بُنية عوائلنا، وان نعيد النظر في بنية هذا التجمع او هذه الدولة او هذه الامة او ذلك الشعب.

ثم بعد ذلك كله: تجب علينا إعادة تركيبة هذا البنيان من جديد، على ضوء القيم والمثل العليا التي ثار لأجلها سيد شباب أهل الجنة عليه الصلاة والسلام، فان في ذلك إحياء لأمر أهل البيت (عليهم السلام) إذ (كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم)

واذا كنا كذلك فاننا سنكون مصداقاً للآية الشريفة في شطرها الأول (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ...) أي على ما يرضي الله سبحانه وتعالى. فهل أسسنا بنياننا كله — بكافة أصوله وفروعه وتفصيله وتضاريسه — على ما يرضي الله او لم يؤسس على ذلك؟

ان شهر محرم هو موسم متميز لإعادة التفكير والتقييم والرقابة وإعادة البناء للنفس وللآخرين، وهو ذلك الشهر الذي يخرج فيه الإنسان، من كل مجلس منه، إنساناً جديداً قد محيت ذنوبه^١ وطهر تطهيرا، لكن عليه ان يبني حياته على هذه الطهارة المستجدة.

(البكاء والابكاء) توبة وبناء

ونختم حديثنا برواية لها وثيق الصلة بما نحن فيه إذ نتحدث عن آثار إحدى أهم مظاهر وشعائر شهر محرم الحرام، والتي ينقلها السيد بن طاووس (رضوان الله تعالى عليه) وبمضمونها روايات أخرى :

"من بكى وأبكى فينا مئة فله الجنة...." وما أعظمه من أجر، بل وما أغربه لدى البعض! لكنه ليس بغريب، فإن (البكاء) و(الابكاء) تطهير للنفس وممحة للذنوب، و(مقتضى) لإعادة بناء الذات، كما سنفصل ذلك في أحاديث قادمة بإذن الله.

١- فيما بينه وبين ربه، اما حقوق الناس فعليه أداؤها.

والخطباء يتصدون لهذه المهمة بالذات - جزاهم الله خير الجزاء - لكننا نرى ان هذه المسؤولية ليست مسؤولية الخطباء فقط بل على الطبيب ايضا ان يُبكي الناس على سيد شباب اهل الجنة، وعلى المهندس او المحامي او الاستاذ الجامعي او المدرس او المعلم في أسرته او على طلابه، وذلك لعظيم الاجر المترتب على ذلك.

بل نقول: حتى لو كان الشخص رئيسا لدولة ما أو حاكماً أو وزيراً، فعليه أن يضطلع بهذا الدور - ولو بين فترة وأخرى -، فاذا كان الثواب هو (الجنة) فما المشكلة في ذلك وما الرادع عن ذلك؟

ان المطلوب ان تكون هذه الشعيرة، كسائر الشعائر الحسينية، ثقافة عامة وحالة عامة يشارك فيها الجميع فانها ليست خاصة برجال الدين والخطباء الكرام فقط، نعم هؤلاء متخصصون في هذا الحقل ولهم حق السبق، لكن الا يتمنى كل شخص ان يكون من اهل الجنة؟ وأليست هذه طريقاً شارعة اليها؟.

يقول الامام (عليه السلام): "من بكى وأبكى فينا مائة فله الجنة، ومن بكى وأبكى فينا خمسين فله الجنة، ومن بكى وأبكى فينا ثلاثين فله الجنة، ومن بكى وأبكى فينا عشرين فله الجنة، ومن بكى وأبكى فينا عشرة فله الجنة، ومن بكى وأبكى فينا واحدا فله الجنة". ان سفينة الإمام الحسين (عليه أزكى الصلاة والسلام) أوسع وأسرع، فلماذا نتخلف عنها؟ وما أجمل أن يتصدى الجميع، الرجال والنساء والكبار والصغار المسؤولون وشيوخ العشائر ومن أشبهه، لكافة الشعائر الحسينية، ومنها هذه الشعيرة ان يبكي ويكوا ولو واحدا على سيد شباب أهل الجنة وسيط رسول الله (صلى الله عليه واله) وقرّة عين امير المؤمنين (عليه ازكى الصلاة والسلام).

السر في اختلاف العدد

وهنا قد تطرح أسئلة منها : لما اختلف العدد؟ مئة، خمسون، ثلاثون، عشرون، عشرة، واحد؟ فنقول:

١) لعله من باب التفضّل، أي ان من أبكى مائة، فانه يستحق الجنة، ولكن الله تعالى تفضلا منه يعطي الجنة لمن أبكى اقل من هذا العدد ولو كان شخصا واحدا، وهناك نظائر لهذه الرواية، في أبواب أخرى؛ لعلنا نتطرق لها لاحقا.

٢) الجنة لفظ له مصاديق كثيرة ومتعددة، فانه لفظ عام يستبطن مفردات وحنانا كثيرة، كما أن للجنان مراتب ودرجات، وهنا نجد ان بعض الأشخاص بابكائهم مائة من الآخرين يستحقون مرتبة أعلى تلك المراتب العالية من الجنة، اما الذي يبكي عشرة او واحدا فله مرتبة أخرى منها وهكذا. وهذا كقولنا كل من بلغ رسالات الله فله الأجر والثواب، فان (الأجر) - والثواب - لفظ عام يستبطن مصاديق عديدة ومراتب مختلفة على حسب خلوص النية وصفاء السريرة وحجم العطاء والإنتاج وغير ذلك^١.

ومنها: كيف يكون من أبكى ولو واحدا، ممن وجبت له الجنة؟

والجواب: ان هذا البكاء يهين الطريق الى الجنة، كالاستغفار (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)^٢، لكن بعد ذلك على الانسان ان يصمم ان لا يعصي الله سبحانه وتعالى، فانه إن بكى وأبكى او استغفر سبحانه وتعالى فقد محيت ذنوبه ووجبت له الجنة، لكنه ان عصي الله سبحانه وتعالى فلعله بذلك يجبط عمله، او لعله بذلك يستحق عقوبة في لحظات الاحتضار أو البرزخ أو القيامة - على حسب أنواع المعاصي ودرجاتها -^{*}.

١ - * - وهناك أجوبة أخرى، وتوضيحات إضافية سنتطرق لها لاحقا بإذن الله تعالى، وقد فصلنا الحديث عن (كبرى) ذلك في كتاب (شعاع من نور فاطمة (عليها السلام)).

٢ - سورة نوح: الآية ١٠.

نسال الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا لنكون جميعا ممن يؤسسبنيانه على تقوى من الله ورضوان، وان يوفقنا في هذا الشهر الكريم لكي نكون من خُلص أولئك السائرين في طريق سيد شباب أهل الجنة(عليه أزكى الصلاة والسلام) والعاملين بنهجه في الحياة. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين، وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين.